داهية العرب والسياسة

عمرو بن العاص

obeikandl.com

obeikandl.com

عمـــرو بـن العـــاص

داهية الحرب والسياسة

ما أصعب الحديث عن عمرو بن العاص!

وما أصعب تحليل هذه الشخصية التى لعبت هذا الدور الخطير فى تاريخ الإسلام!

وما أكثر الهوة الشاسعة بين التحليلات المختلفة حول هذه الشخصية من قبل أن نعرض لها بالدراسة والتحليل فى مختلف عصور التاريخ!

فهو بلغة الحساب قدَّمَ الكثير فى خدمة الإسلام وقضايا الإسلام، وعلى يديه تم فتح فلسطين ، وقام بدور إيجابى فى حروب الردة.

وهو أيضًا طالما كاد للإسلام ، ووقف ضد الدعوة ، وكان إسلامه متأخرًا ، كما أن له أدوارًا فى سياسة خطيرة عندما احتدم الصراع بين الإمام على - رضى الله عنه - ومعاوية بن أبى سفيان.

ومن هنا فإن حساب المكسب والخسارة بالنسبة إلى الإسلام من

obeikandl.com

هذه الشخصية يصبح فى غاية التعقيد والصعوبة، ولا يبقى أمام الدارس المنصف، إلا أن يرى موقفه من خلال الأحداث التاريخية المختلفة ، ويرى من وجهة نظر هذا الداهية الكبير نفسه فى نفسه.

نشأ عمرو بن العاص وهو فى حيرة من أمره ، فإذا كان أبوه العاص بن وائل من أشهر رجال مكة لما له من ثراء وجاه ، فإن أمه كانت أمـــة ، وكان اسمها سلمى بنت حرملة ، هذه النشأة جعلت عمرًا يتشبث ويفتخر بأبيه؛ لما له من جاه وسلطان ، ويخجل أن أمه كانت مجرد رقيق. وقد سبب له هذا الوضع عقدة ترسبت فى أعماقه، أن يكون سيدًا كوالده ، وألا يكون تابعًا لأحد كأمه ، وأن يرتفع بما يؤهله للزعامة والسيادة ، فقد أجاد القراءة والكتابة وأحب الشعر وتعلم فنون القتال ، كما تعلم أيضًا السباحة ، وقرر أن يجوب مختلف البلدان للتجارة؛ ليكون من أصحاب الثراء.

وجاءت الدعوة الإسلامية ، ووجد المجتمع المكى نفسه فجأة أمام دعوة جديدة ، تنادى بسيادة الإنسان ، وأنه لافرق بين إنسان وآخر إلا بالتقوى ، ولا تتحقق إنسانية الإنسان إلا بالإيمان ، فلا إيمان بلا عمل، ولا عمل بلا إيمان ، وكان لصاحب الدعوة من القوة والجلال والمهابة ما جعل القلوب تتألف حوله ، فما عرفوا

عن الرسول الكريم ﷺ إلا الأخلاق السامية الرفيعة ، ووجد ابن العاص هذه الدعوة تحول دون تحقيق طموحاته، فوقف كما وقف والده العاص بن وائل ضدها ، وأخذ يعلن عليها الحرب ، وكان قد جاوز الثلاثين من عمره.

ولكن هاله انتشار الدعوة ، وأن تعذيب مكة للضعفاء المسلمين لم يُثْنِ من عزمهم ، ونور الإسلام ينطلق إلى غايته، فاشتد عليه الأمر، وزاد من عذابه أنه علم بأن النبى ﷺ سمح للمسلمين بالهجرة إلى الحبشة هربًا من تنكيل مكة لهم ، فقرر أن يكون سفيرًا لمكة عند نجاشى الحبشة ، وقرر أن يسافر إلى ملك الحبشة ليثيره على المسلمين. ولكن دهاءه ومكره وحسن حديثه وكل الوسائل التى كان يمتلكها ابن العاص قد فشلت تمامًا، فالنجاشى قد استمع إلى من يمثل المسلمين فى الحديث إليه حول الإسلام ونبى الإسلام ، وكان هذا الرجل هو جعفر بن أبى طالب . . كان فصيحًا بليغًا . . دافع عن الإسلام بقوله:

« أيها الملك ، كنا قومًا أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة، ونأتى الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسىء الجوار ، ويأكل القوى منا الضعيف ، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا ، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله

لنوحده ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد وآباؤنا من دونه الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار. . . » إلى آخر هذا الحديث الشهير.

فأعجب ذلك النجاشى ، إلا أن عمرًا أراد ألا يخضع للهزيمة، وأراد أن يشى بين المسلمين والنجاشى ، فقال له:

« إنهم يزعمون أن عيسى بن مريم عبد».

وسأل النجاشى جعفر عن رأى الإسلام فى السيد المسيح ، فما كان من جعفر إلا أن قرأ له بعض آيات القرآن الكريم التى تتحدث عن السيد المسيح باعتباره روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم.

وأعجب النجاشى بردود جعفر بن أبى طالب ، وقرر ألا يسلم المسلمين إلى مكة ، ورد إلى ابن العاص الهدايا التى كان يحملها إليه.

وعاد ابن العاص إلى مكة بخُفَّى حُنَين ، وشاهد زحف الإسلام الساحق ، وخاصة بعد الهجرة ، وانتصارات المسلمين فى بدر ، وصمودهم فى أحد ، وفشل الأحزاب عندما حاصروا المسلمين فى المدينة ، وعلم تماماً أن هذا الدين لن يقف أمامه حائل ، وفكر فى أمر هذا الدين وانتصاراته ، وما يخلعه على

معتنقيه من قوة العزيمة والحرص على الشهادة ، وأيقن أن مستقبله كله مُرْتَهِن بالإسلام ، وقرر أن يدخل فى دين الله.

لقد أسلم عمرو بن العاص قبيل فتح مكة بقليل. وعندما ذهب ليعلن إسلامه ، التقى وهو فى طريقه إلى المدينة بخالد بن الوليد الذى ذهب هو الآخر ليعلن إسلامه، وتقدم خالد وأعلن إسلامه. وعندما تقدم عمرو بعده قال للرسول ﷺ:

« يا رسول الله، إنى أبايعك على أن يغفر الله لى ما تقدَّمَ من ذنبى».

فقال له الرسول:

« يا عمرو، بايع ، فإن الإسلام يَجُبُّ ما كان قبله».

وفى رواية أخرى أن عمرو بن العاص قال للنبى:

« أبايعك يا رسول الله على أن يُغفَر لى ما تقدَّمَ من ذنبى».

رد عليه الرسول:

« إن الإسلام والهجرة يَجُبَّان ما كان قبلهما».

ويقول عمرو بن العاص معلقًا على إسلامه وما كان يعتريه من خجل كلما رأى رسول الله؛ لتأخره فى الإسلام:

« واللهِ ما ملأتُ عينى منه وراجعْتُه بما أريد حتى لحق ربه؛ حياءً منه».

ولقد أتيحت الفرصة لعمرو بن العاص ليثبت ولاءه للإسلام وفى الإسلام ، عندما تَناهَى إلى سمع النبى أن بعض القبائل من قضاعة ينوون القيام بالهجوم على المدينة ، فقرر أن يفاجئهم فى ديارهم ، وانتدب للقيادة عمرو بن العاص على رأس ثلاثمائة مسلم. وقد شعر عمرو بالارتياح لأن النبى اختاره لهذه المهمة رغم حداثة دخوله الإسلام ، وشعر فيما بينه وبين نفسه بأهميته وأراد أن يحقق انتصارًا ، حتى تكون ثقة الرسول فى محلها من جهة ، ومن جهة أخرى فإن انتصاره يكون بداية لصعوده سلم المجد فى ظل الدين الذى اعتنقه ، وهو الذى كان كثيرًا ما يردد فى فخر واعتزاز باختيار النبى له ولخالد بن الوليد فى الحروب بمجرد إسلامهما.

لقد توجَّهَ ابن العاص فى طريقه إلى معركة ذات السلاسل ، ودرس الموقف العسكرى ، ووجد أن قواته من الصعب أن تواجه الأعداء بعددهم القليل ، وأرسل يطلب المدد من الرسول الكريم، وأرسل له الرسول مدداً فيه عدد من أعلام الصحابة من أمثال: أبى عبيدة بن الجراح ، وأبى بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب. ورحَّبَ بهم عمرو ، ولكنه أصر أن يكون هو القائد؛ لأن أبا

عبيدة ومن معه جاءوا كمدد .أما القيادة فهى له.

وحرصًا من أبى عبيدة بن الجراح ألا يدبَّ الخلاف بسبب القيادة، ويتسبب عن هذا هزيمة أو ما لا يُحمَد عُقْباه ، ترك أمر القيادة لعمرو. وهذا يدل على حرص عمرو على الرئاسة والسلطة وأن طموحاته العسكرية والسياسية بلا حدود.

وقاد عمرو المسلمين فى هذه المعركة ، وكانت المعركة فى ليالى الشتاء القارس ، ورفض عمرو أن يوقد أحد من جيشه النار للتدفئة؛ حتى لا يعرف العدو عدد جيشه فيستهين به. وحقق النصر فى هذه المعركة التى كانت نقطة انطلاقًا فى انتصاراته العسكرية بعد ذلك. وعاد من هذه المعركة سعيدًا؛ لأنه أرضى رسول الله ﷺ، وأثبت مقدرته العسكرية فى جيش من جنوده الصديق وعمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح.

وصدق فيه حدس عمر بن الخطاب عندما قال عنه:

«ما ينبغى لأبى عبد الله أن يمشى على الأرض إلا أميرًا».

وتمضى الأيام ، وينتقل رسول الله إلى أكرم جوار ، ويرتد بعض العرب عن الإسلام ، وإذا بالصديق يتصدى لهم ، ويحقق انتصاراً عليهم، ويُعيد للعرب وحدتهم ، وكان أحد أبطال هذه الحروب عمرو بن العاص عندما قضى على الردة فى قضاعة،

نفس القبائل التى هزمها من قبل فى معركة ذات السلاسل. وهكذا استطاع عمرو بن العاص أن يضع قدميه على سلم المجد، ووثق به خليفة رسول الله.

كما وثق به الرسول ﷺ ، وأصبح الطريق أمامه ممهدًا ليحقق ما تصبو إليه نفسه من طموحات ، وفى نفس الوقت يحقق للإسلام الأهداف التى يسعى إليها فى نشر نوره وحضارته بين ربوع البشر.

ومع الأيام يظهر الإسلام ، فلم يعد خافيًا على أحد فى مختلف أرجاء الدنيا ، فقد سبق أن أرسل الرسول الكريم رسله إلى ملوك العالم وحكامه يدعوهم إلى الإسلام؛ لأن الإسلام دعوة عالمية ، جاء للناس كافة على اختلاف ألوانهم وأجناسهم ولغاتهم ، منهم من رد ردا حسنًا، ومنهم من كان صفيقًا فى رده. وقد آن الأوان للمجابهة. لقد اتحد العرب ، أصبحوا أمة واحدة ، يحكمهم حاكم واحد لهم هدف واحد ، وآمال واحدة، وطموحات واحدة. وقد قرر نشر دين الله فى كل الدنيا ، كما أوحى بذلك نبيهم ، وكان لابد من المواجهة مع الدولتين العظيمين : الفرس والرومان.

على جبهة الفرس تحققت الانتصارات المذهلة، ودخل المسلمون

المدائن عاصمة كسرى بقيادة سعد بن أبى وقاص.

وفى الجبهة الرومانية حقق خالد بن الوليد ما يشبه المعجزات العسكرية عندما اخترق بجيوشه بادية الشمال ، ولحق بالمسلمين فى الشام قبيل معركة اليرموك ، واستطاع أن يشتت شمل الروم.

وبعدها تم فتح فلسطين على يد عمرو بن العاص ، غير أن عمرًا يرمى إلى فتح مصر؛ لتأمين ما حققه المسلمون من انتصارات فى العراق والشام ، وحتى لا ينقض عليهم من جديد الرومان الذين تتمركز قواتهم فى مصر ، وفى الوقت نفسه كان عمرو بن العاص يعلم علم اليقين مدى كراهية المصريين لحكم الرومان ، وأنه لو دخل مصر فسيساعده المصريون؛ ومن ثم سوف يحقق النصر.

لقد كانت مصر هى أغنى ممتلكات الرومان ، وقرر عمرو أن يحقق أمنية عمره بالاستيلاء عليها وتحريرها من طغيان الروم. وسنحت له الفرصة عندما التقى بأمير المؤمنين عمر بن الخطاب عند «الجابية»، عندما جاء إلى فلسطين لاستلام بيت المقدس ، وأخبره بأهمية فتح مصر ، واقتنع أمير المؤمنين، ووافق على الفكرة من حيث المبدأ، وأخبره أن عليه أن يواصل زحفه نحو مصر ، إلا إذا جاءته رسالة بعدم دخول مصر إذا لم تكن جيوشه

قد وطِئَتْها بالفعل.

ويقال إن خطاب أمير المؤمنين قد وصل عمرًا ولم يدخل مصر بعد، وأنه تَحايَلَ على رسول أمير المؤمنين؛ حتى لا يفضَّ الخطاب إلا بعد أن يدخل الأراضى المصرية. وعندما دخلها أخذ يقرأ خطاب أمير المؤمنين الذى كان يأمره بالعودة لو لم يكن قد دخل أرض مصر ، ومن ثم واصل زحفه ، وحقق انتصاره إلى أن تم له الاستيلاء على مصر.

وما أكثر الروايات والأساطير حول دهاء عمرو وطموحاته!

فقد امتلأت كتب التاريخ بكل هذه الأساطير التى لا تمتُّ إلى الواقع التاريخى بصلة ، ولكن إذا دلت على شىء فإنما تدل على مدى ما ارتبط بشخصية عمرو من أساطير. وهذا يدل أيضًا على الوزن المهم الذى كان لشخصية عمرو ، وما كان يتمتع به من سياسة ودهاء.

ومما يرويه الرواة عن دهائه أنه عندما جاء لفتح مصر ، وأثناء الحصار لحصن بابليون ، كان هناك تفاوض بين عمرو وقائد المعسكر الرومانى ، وأن هذا القائد الرومانى قد أعد خطة لقتل عمرو أثناء خروجه من الحصن بعد التفاوض بأن يلقى عليه حجرًا فيرديه قتيلاً. وقد فطن عمرو وهو فى طريقه إلى الخروج من

الحصن بأن هناك مؤامرة.

فعاد ثابت الخطى إلى القائد الرومانى يخبره بأن عددًا من قادة المسلمين يريدون الالتقاء به فى الحصن؛ حتى يتم التفاوض فى حضرتهم. وكان يقصد أن يرمى بطعم إلى القائد الرومانى ، الذى ابتلع الطعم بالفعل ، على أمل أن ينتظر إلى الغد؛ حتى يتم قتل الجميع. ونجا عمرو من المؤمراة، وتحقق له فيما بعد فتح الحصن.

وإذا كان عمرو بن العاص قد وطَّد نفسه فى مجال البطولات العسكرية ، وحقق انتصاراً واضحًا عندما ضم مصر إلى حظيرة الإسلام ، وقرر أن تكون مصر نقطة انطلاق الفتوحات الإسلامية عبر الشمال الإفريقى فيما بعد ، فإن هذه الانتصارات ارتبطت معها طموحاته السياسية، فلم يطق البعد عن السلطة وقد أحزنه أن يعزله عثمان بن عفان عن ولاية مصر.

وعندما احتدم الخلاف بين على ومعاوية ، انضم إلى جيش معاوية؛ حتى يوليه حكم مصر من جديد ، وحتى يظل على مسرح السياسة يمارس فيها طموحاته ، فما كان لإنسان مثل عمرو بعد أن حقق ما كان يصبو إليه من انتصارات أو يصل إلى السلطة أن يتنازل عن كل ذلك ببساطة وينطوى فى زوايا النسيان.

لقد كان مثلاً على طرفى نقيض مع ابنه عبدالله. . هذا الابن الذى أسلم قبل أبيه ، وعرف لذة الطاعة ، وجمال الإيمان ، ووجد أن الحياة بلا معنى؛ لأنها مجرد جسر إلى الآخرة. لهذا عاش عمره مجاهدًا فى ميدان النفس ، فكان يعيش حياته زاهدًا، متعبدًا كثير الصلاة والصيام ، بنفس الدافع الذى يدفعه إلى ميدان الجهاد فى ساحات القتال ، حتى إن النبى ﷺ أوصاه أن يقتصد قليلاً فى عبادته وأن يطيع والده.

وعندما اندلعت نيران الفتنة ، وبدأت المعارك العسكرية من أتباع على وأتباع معاوية ، وتوقفت الفتوحات الإسلامية نتيجة الصراع بين المسلمين؛ حاول عمرو أن يجعل ابنه يخرج للقتال فى صف معاوية ، وكان ابنه قد رفض القتال فى أول الأمر ، غير أن عمرًا ذكره بوصية الرسول له بطاعة أبيه ، فخرج ابنه على كره منه ، ولكنه فوجئ أثناء القتال بمقتل عمار بن ياسر ، الذى سمع بنفسه النبى ﷺ يقول له:

«ستقتلك الفئة الباغية ».

وها هو يُقَتل ، والذى قتله جيش معاوية. إذن جيش معاوية هو الفئة الباغية. وعلى الفور قرر عبدالله الانسحاب من هذه المعركة ، وهاله أن يسفك المسلم دم أخيه المسلم . بل الأدهى من

ذلك أنه يقاتل الآن بجانب الفئة الباغية ، فقد اتضح له ذلك بما لا يدع مجالاً للشك عندما قتل عمار بن ياسر.

ولكن سرعان ما احتوى معاوية وعمرو بدهائهما الشديد الموقف، وخوفًا من أن تُحدِث آراء عبدالله بن عمرو بن العاص العصيان فى جيش معاوية ، سرعان ما احتويا الموقف عندما أعلنا أن الذى قتل عمار بن ياسر هو الذى جاء به إلى هذه المعركة ، يعنى الإمام عليا رضى الله عنه.

ولعل أخطر أدوار عمرو بن العاص السياسية ، هو ذلك الدور الذى لعبه عندما احتدم الخلاف بين على ومعاوية.

كان جيش معاوية أطوع إليه من خاتم أصبعه كما يقولون ، وكان جيش على كثير النقاش معه . . لا يتركون الإمام يقرر أمرًا إلا بعد أن يناقشوه ويجادلوه ،حتى اشتد الأمر عليه.

وفى معركة «صفين» عندما أوشكت جيوش الإمام على أن تحقق الانتصار الحاسم، نظر معاوية إلى عمرو يسأله الرأى والمشورة ، وأشار عمرو أن يرفع جنود الشام المصاحف على أسنة الرماح طلبًا لتحكيم كتاب الله ، وهنا تتهيأ الفرصة ليعاود معاوية تنظيم جيشه من جديد ، أى أنها هدنة مسلحة. ورفع جنود الشام المصاحف على أسنة الرماح، وطلب على من جيشه مواصلة

القتال ، ولكنهم لم يستجيبوا له، وأخذوا يجادلونه كالعادة ، وذهبت نصائح الإمام أدراج الرياح ، ولم يجد بُدا من الاستجابة ووقف القتال ، واختار معاوية للتحكيم -بالطبع- ، عمرو بن العاص الذى كان يناهز الثمانين من عمره.

واختير أبو موسى الأشعرى ليمثل الإمام، ودار اجتماع بين عمرو وأبى موسى الأشعرى، واستطاع عمرو أن يخدع أبا موسى ويقنعه بضرورة خلع كل من على ومعاوية، وأن يختار المسلمون خليفة جديدًا. واقتنع أبو موسى الأشعرى.

وفى «دومة الجندل» كان على عمرو وموسى أن يعلنا ما اتفقا عليه، وطلب عمرو أن يتقدم أبو موسى الأشعرى ليعلن رأيه أولاً نظرًا لسابقته فى الإسلام وكِبَرِ سنه.

ويقول بعض الرواة إن ابن العباس نصح أبا موسى الأشعرى أن يتكلم بعد عمرو؛ حتى لا يكون فى الأمر شىء. ولكن أبا موسى الأشعرى رفض ذلك ، وقام وأعلن خلعه لعلى.

وبعدها قام عمرو، وأعلن تأييده لخلع على، وتثبيته معاوية خليفة للمسلمين ، وفُجع أبو موسى الأشعرى ، وقام يلعن عمرًا، ويعلن أنه خدعه، وأن ما أعلنه عمرو ليس هو الذى اتفقا عليه.

ورد عليه عمرو ردا عنيفًا .

وهكذا كانت حيلة عمرو دافعًا من أقوى الدوافع لتثبيت دولة بنى أمية.

وتمضى الأيام ، ويحس عمرو أن أيامه فى الدنيا صارت قليلة، وأنه يوشك على الرحيل ، وأنه سوف يلتقى بربه ، ولا ينفعه إلا ما قدمت يداه فى خدمة الدين ، وأنه سوف يلتقى مع من لا يستطيع مخلوق خداعه ، ولا يبقى للإنسان فى لحظات الوقوف أمام الخالق العظيم إلا ما قدمت يداه.

ويمر شريط الذكريات فى مخيلة عمرو: يوم وقف ضد الدعوة، ويوم أسلم وأخبره الرسول العظيم بأن الإسلام يَجُبُّ ما قبله ، ويوم جاهد المرتدين ، ومن قبل جاهد أعداء الإسلام فى زمن الرسول ﷺ، ويوم قاد جيوش الإسلام فى فلسطين ومصر.

يتذكر كل ذلك ، ثم يتذكر مواقفه السياسية فتدمع عيناه .

أين حساب الكسب والخسارة؟

أيهما أرجح عند الله؟

ما موقفه أمام خالق كل شىء؟ ما أشد الحساب!

وتدمع عيناه ، ويسأله ابنه عبدالله:

- أجزعٌ من الموت؟

- لا . ولكن ما بعد الموت.

ويقول بعض الرواة إنه قال:

- اللهم إنك أمرتنى فلم آتمر ، وزجرتنى فلم أنزجر.

وظل يردد «لا إله إلا الله» ، إلى أن لفظ أنفاسه الأخيرة.

وعلى ثرى مصر الطاهر ، وفى مكان غير معروف فى جبل المقطم، دُفِن عمرو بن العاص.

انتهى الجسد ، وبقِيَتِ الأعمال والذكريات.

وظلت شخصيته من الصعوبة بمكان فك طلاسمها.

فما أكثر الاختلافات حوله!

ولكن ربما يشفع له ما حققه من انتصارات عسكرية ضخمة فى أيام خلفائه.

وآخر كلماته التى لقى الله عليها:

« لا إله إلا الله».

* * *